الرّمزية فی الأدبين العربی والغربی

سيد أمير محمود أنوار*
غلام رضا گلچين راد**

الملخص

من البدهی المعروف أن المقصود من الأدب، الشعر والنثر، سواء كانا من نفس العرب أم من المستغربين. ولما كانت الرمزية قدأخذت شكل مذهب أدبی معروف فی الأدب الغربی بوجه عام، وفی الأدب الفرنسی بوجه خاص، كان علی الدارس لهذا الموضوع، الرّمزية فی الأدب العربی، أن يعرض حتما مفهوم الرّمزية الغربية.وأن يبين ما عسی أن يكون لهذا المفهوم فی الأدب العربی فی العصور المختلفة، إلی جانب المفهوم العربی للرمزية.وغاية البحث تبيين مظاهر الرمزية فی الأدب العربی سواء، كانت تلك المظاهر تندرج فی المفهوم العربی للرمزية، أو تنخرط فی سلك المفهوم الغربی للرمزية، وتبيين أسبابها ومقاصدها وقيمتها الأدبية، وصلتها بالمظاهر الأبية الأخری، ومكانتها بين تلك المظاهر، وما اعتراها من صعود أو هبوط فی تاريخ الأدب.

الكلماتالدليلية: الرمزية، الأدب الغربی، الأدب العربی، الشعر، النثر.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.
**. خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

تاريخ دريافت: ۱۳۸۸/۹/۱۰هـ. ش تاريخ پذيرش: ۱۳۸۸/۱۰/۱۹هـ. ش

المقدمة

المذهب الأدبی حالة نفسية، وليدة لحوادث التاريخ وملابسات الحياة، ثم دفعت هذه الحالة الشعراء والكتاب والنقاد إلى التعبير عنها، ووضع الأصول والقواعد التی يتكون من مجموعها المذهب. (مندور، ۱۹۴۹م: ۱۰۴و۱۰۵)

فالمذهب الأدبی لم يقصد إلى خلقه خلقا، ولكنه ينبع من الحياة، وتعمل على إيجاده العوامل المختلفة التی تؤثر فی كيان الأدباء وأمزجتهم، ومشاعرهم، وتلون الآداب، وتصبغه بما يلائمها.

وإذا أردنا أن نعرف الأسباب التی تدعو إلى ظهور المذاهب الأدبية، فعلينا أن نرجع إلى العوامل المختلفة التی تؤثر فی الأدب بوجه عام.العوامل التی تؤثر فی الأدب يمكن إرجاعها إلى قسمين رئيسين: عوامل مادية وداخلية، وعوامل نفسية وخارجية، ويقصد بالعوامل الأولى كل ما يحاول رد الظواهر الجتماعية إلى صور خارجية؛ كما يقصد بالعوامل الثانية كل ما يتصل بعلم النفس مما هو شعورى، أو غير شعورى لايحسه الأديب إحساسا ماديا، كما يحس بكل ما يحيط به، وإنما يدفع الأديب دفعا إلى الإنتاج الذى يبتدئه صغيرا قليلا، ويفكر فيه صغيرا قليلا ثم يجده آخر الأمر عملا جليلا. (سلامة، لاتا: ۲۳۵)

وجدير بالذكر أن المذاهب الأدبية لاتتكون طفرة، وإنما تتكون بالتدريج شيئا فشيئا، بتأثر تلك العوامل الظاهرة والخفية، إلى أن تصل إلى دور، تتميز فيه وتصبح ذا كيان خاص، وطابع يمتاز بلون من الاستقلال.ولما أطل القرن التاسع العشر- عهد النهضة والبعث العلمی- واتصل العرب بثقافات الغرب وآداب الغربيين، بدأت المذاهب الأدبية تأخذ صورة متميزة فی الأدب العربی الحديث.

الرمزية لغة واصطلاحا عند العرب

يطلق الرمز عند العرب على:

أ. الإشارة بالشفتين، أو العينين، أو الحاجبين، أو اليد، أو الفم، أو اللسان.

ب. وقصر بعضهم الرمز على الشفتين. (الثعالبی، ۱۹۲۷م: ۲۲۸، والقيروانی، ۱۹۲۵م، ج۱: ۲۱۰)

ج. ويرى بعضهم أن أصل الرمز هو الصوت الخفی الذی لايكاد يفهم. (قدامة، ۱۹۳۹م: ۶۱) وأن ذلک هو ما عناه الله تعالى بقوله: «آيتک ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلارمزا.»

د. وقيل إنه الكلام الخفی الذی لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار كالإشارة. (القيروانی، ۱۹۲۵م: ۲۱۰)

هـ. وقيل إن أصله التحرک.

وكأن صاحب اللسان يقصد إلى جمع بين المعانی الأربعة الأخيرة، وردها إلى معنى واحد، إذ يقول: «الرمز تصويت خفی باللسان كالهمس، ويكون بتحريک الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت، إنما هو إشارة بالشفتين.» (ابن منظور، لاتا: مادة رمز)

والجاحظ أول من أطنب فی الكلام عن الإشارة، فهو يرى أن الدلالة على المعانی لاتكون بالألفاظ وحدها بل تكون بالكتابة وبالإشارة. (الجاحظ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۶۹)

والجدير بالذكر أن الرمز لم يتخذ معنى اصطلاحيا إلا منذ العصر العباسی، عصر التحول الظاهر فی الحياة العربية الاجتماعية والعقلية، وعصر النهضة العلمية الأدبية.وأول من تكلم عن الرمز بالمعنى الاصطلاحی هو قدامة بن جعفر. (طبانة، لاتا: ۱۰۶)

وجاء ابن الرشيق بعد قدامة، فخطا خطوة أخرى فی تحديد مفهوم الإشارة ويقول: «الإشارة فی كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه.» (القيروانی، ۱۹۲۵م، ج۱: ۲۰۶)

إن ابن رشيق لايرى الرمز مرادفا للإشارة الحسية، ومن أجل ذلک جعل الرمز الأدبی نوعا من أنواع الإشارة الأدبية لا مرادفا لها.وقدخص البلاغيون المتأخرون الكناية الرامزة، بالتی ليست تعريضا، إن كانت قليلة الوسائط، ولكنها خفية. (عبدالرزاق، لاتا: ۱۱۳)

الرمزية كما يفهمها الغربيون

يطلق الرمز لغة عند الفرنسيين على شكل أو علامة أو أى شئ مادى له معنى اصطلاحى، كالكلب يرمز به للأمانة، وكالرموز التى تدلّ على العناصر الكيميائية، وكالعلامات التى على قطع النقود مشيرة إلى مواضع ضربها.

الرمزية فى الأدب فهى حركة أدبية تميزت فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت هذه الحركة ثورة على الطبيعة البالغة الغاية فى الجمود، وعلى البرناسية المفرطة فى الوضوح.

إن المذهب الرمزى الذى اشتهر فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر كان نتيجة لعوامل عدة، منها الاجتماعى والاقتصادى، ومنها الأدبى والفنى والثقافى.ولم تنبع كل هذه العوامل من فرنسا، وإنما كان منها الخارجى والداخلى، ولعل الدخيل منها كان كثير الغالب. وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على إيجاد هذه الحركة الأدبية التى نزعت نزعة صوفية، وآمنت بالعالم المثالى فى نظر الرمزيين أكثر حقيقة من عالم الحس الذى آمن به الطبيعيون والبرناسيون.ولم يكن ذلک العلم الذى اتجه إليه الرمزيون مسيحيا بالمعنى المسيحى الدقيق.فقدكانت الروح الغالبة عليهم بعيدة عن الدين والتقيد بروحه ونصوصه.

إن جوهر الرمزية يتمثل فى الإيمان بعالم من الجمال المثالى الاعتقاد بأن هذا العالم يتسير الوصول إليه عن طريق الفن.وما أشبه النشوات الروحية التى يحس به الناسک فى صلاته واستغراقه الدينى بتلک النشوات التى يصل إليها الشاعر بنظرته الرمزية خلال مزاولته فنه. (سلامة، لاتا: ١٤١)

لقد نزع الرمزيون نزعة صوفية، لكنها بعيدة عن الدين، وإن تشابهت الأهداف والغايات.

الرمزية فى الأدب العربى القديم

الرمزية فى الأدب الجاهلى

يرى العربى كل شئ أمام ناظريه واضحا جليا، وليس بينه وبين الطبيعة حجاب، فهو

يراها قوية بينة باهرة، حرارة وضوء ورمل وسماء، ولأجل ذلک جاءت لغته ناصعة الدلالة لا لبس فيها ولاغموض، فإن التفكير البدوى كان ساذجا، وهو يميل إلى الوضوح وينفر من الغموض، والعرب فى هذه البيئة الجاهلية، لم يستطيعوا أن ينظروا إلى هذا الوجود نظرة جامعة شاملة عميقة، حتى فى دياناتهم وعباداتهم. ومعنى ذلک كله أن البيئة الجاهلية لم تكن صالحة للرمزية بالمفهوم الغربى.وأما الرمزية بالمفهوم العربى، فقد نبعت أول مانبعت من الأدب الجاهلى، وتعتمد على ركنين: الإيجاز، وغير المباشرة فى التعبير.

الرمزية فى العصر الإسلامى

التيارات الفعالة فى العصر الإسلامى وأثرها فى الرمزية

يمكن أن نحصر هذه التيارات فى الإسلام إذ فتح فى حياة العرب صفحة جديدة،... ومن ثم جريان الرمزية فى هذا العصر فى مجرى قريب من مجراها فى العصر الجاهلى.

القرآن والرمزية

اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية فى أسمى مظاهرها وفى كلا ركنيها: الإيجاز، وغير المباشرة فى التعبير.وفى القرآن الكريم ما قديتلاقى والرمزية الأوروبية نوعا ما فى «شجرة الزقوم» الذى يبدو فى التصوير الرمزى الغربى، ومن ذلک أيضا ما يمتاز به القرآن من اعتماد على الموسيقى والإيقاع فى إثارة الأجواء المختلفة.لكن الفرق بعيد بين منهج الرمزية الغربية، وبين منهج القرآن، إن القرآن قدجمع بين الإيحاء وبين الوضوح، وخاطب العقل والشعور معا.وأما الرمزية الغربية فقدنفرت من الوضوح لأنه لايحقق الإيحاء.ولأن الرمزيين خاطبوا الشعور فقط، وجافوا مخاطبة العقل.وأيضا تتمثل الرمزية فى أحاديث رسول الله (ص) رائعة عالية.

مظاهر الرمزية فی الأدب الإسلامی فی الشعر والنثر

أولا فی الشعر

الرمزية الأسلوبية

الإيجاز

إن الشعر العربی بطبيعته يميل إلى الإيجاز ولكننا نلاحظ أن جانبا من الشعر الإسلامی قد اتجه إلى الإطناب نوعا ما، بل إن شعر العصبية القبلية فی هذا العصر قدسرت إليه أيضا هذه العدوى.

استخدام صور التعبير غير المباشر من التشبيهات والاستعارات والكنايات لتذكرنا بالرمزية الغربية، إذ نراها وليدة مخبلة، تؤلف بين الصور المتباعدة، وتلمح العلاقات الخفية بين الأشياء ،وهذه الظاهرة خاصة من خواص الرمزية الغربية. (ضيف، ١٩٥٢م: ٢٢٩)

ومع ذلک فإننا لانستطيع أن نعد أمثال هذه التشبيهات، تشبيهات رمزية تماما على النحو الأوروبی.ونحن نلمح سمة أخرى قريبة الشبه بما فی الرمزية الأوروبية فی شعر الرجاز، كما يعتقد الدكتور سيد نوفل، يلحظ ما فی ذلک من روعة التصوير الموسيقی المبهم للمعانی، وهذا هو الهدف الأسمی للرمزية الغربية. (نوفل، ١٩٤٥م: ١٣٨)

الرمزية الموضوعية

الرمز السياسی

ومن أمثلته قول عبيدالله بن قيس الرقيات فی قصيدة يستعطف بها عبدالملک بن مروان:

بشر الظبی والغراب بسعدی　　مرحبا بـــالأذی يقول الغراب
قال لی إن خير سعدی قريب　　قدأنـــی أن يكون منه اقتراب

وهو يرمز بسعدی هنا إلى عبد الملک، ويذكر ما كان من عفو عبد الملک عنه بعد قتل مصعب الذی كان ابن قيس الرقيات من أتباعه. (ضيف، ١٩٥٢م: ٢٩٧و٢٩٨)

ومن رمزيات الشعوبيين، قول إسماعيل بن يسار النسائى. (الشايب، لاتا: ١٩٢)

فاتركى الفخر يــا أمام علينا　　واتركى الجور وانطقى بالصواب

وهو يكنى عن جنس العرب بأمامة.

ثانيا فى النثر

الإيجاز

وقدكان غالبا على النثر فى هذا العصر لغلبة الروح العربى، ومن مظاهر الإيجاز، التوقيعات. والتوقيعات فى جملتها يتحقق فيها أحد ركنى الرمزية وهو الإيجاز.

الرمزية فى الأدب العباسى

فلما جاء عهد العباسيين بدأ به عهد جديد، له طابع يغاير كثيرا طابع العروبة الخالصة التى تجلت فى الأزمنة السابقة.وقد كان إلى جانب الضغط الفكرى فى هذا العصر، لونان آخران من الضغط كان لهما أثرهما فى الرمزية، أعنى بهما الكبت السياسى، والضيق الاقتصادى. وفى ظل هذا الكبت السياسى كان لابد أن يتخذ التعبير الأدبى أحيانا شيئا من الرمز لينجو صاحبه من الأذى، والضرر، وهكذا كان الضغط بجميع ألوانه الفكرية، والسياسية، والاقتصادية عاملا له أثره فى الرمزية فى هذا العصر.

ومن الرمز الموضوعى فى الشعر العباسى ثورة بعض الشعوبيين على بكاء الأطلال، فقد كانت هذه الثورة رمزا للنيل من العرب، والحطّ من شأنهم، والزراية على مظاهر حياتهم وعاداتهم.وقد لاحظنا الرمزية فى النثر العباسى فى مواضع كثيرة ككتاب كليلة ودمنة، ورسائل إخوان الصفاء، وألف ليلة وليلة، والمقامات، و...إلخ.

تاريخ الحركة الرمزية فى الغرب

من الخطر أن نعمد إلى تحديد الحركات الأدبية (المصدرنفسه)، وتحديد تواريخ هذه الحركات وبيان النزعة الغالبة على كل فترة من فترات التاريخ الأدبى.فقد اقترن ظهور

الحركة الرمزية بأواخر القرن التاسع عشر.

كان «بودلير» (١٨٢١-١٨٦٧م) رائد للرمزية فی فرنسا، بل إن «بورا» يعد مع «فرلين» (١٨٤٤-١٨٩٦م) و«ملارمه» (١٨٤٢-١٨٩٨م) أشهر الشعراء الرمزية.

إن «بودلير» قدتأثر بأدب «بو»، وبدا هذا التأثر واضحا فی ديوانه «أزاهر الشر» الذی أثر بدوره فيمن تلا «بولير» من الرمزيين.

وأما «ملارمه» (١٨٤٢-١٨٩٨م) فعلی يده وصلت الرمزية إلی نهاية الشوط من التحديد والتعقيد، وإليه يرجع الفضل فی طبع الرمزية بالطابع الكامل.

مكانة الرمزية بين المذاهب الأدبية الغربية

والحق أن الرمزية لم تكن إلا لونا من ألوان الرومانتيكية، ولقد كان للرومانتيكية الألمانية والإنجليزية أثر ليس بالقليل فی نشأة الرمزية فی فرنسا، ولم يكن «بودلير» رائد الرمزية الرومانتيكی إلا شاعرا رومانتيكيا.فقدكان الرومانتيكيون يتحدثون عن الحب، والرحيل، والسياسة، أما الرمزيون فقدتوغلوا فی تجربتهم داخل حقل الفن وحده، وقصروا كشوفهم علی نواحی الفكر والخيال.وإذا كان فی الرمزية الأصلية بعض العيوب التی تمثل فی عيبين رئيسيين: هما التطرف فی الإنطواء، والانعزال عن العالم.إن الرمزية ضرورة ما شعر الإنسان بضرورتها فی تمثيل الدقائق والأسرار، ولكنها تخرج عن الضرورة إلی الضرر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها «الرمز للرمز» و«الفن للفن». (العقاد، ١٩٤٧م: مقال بمجلة الكتاب)

تأثر الأدب العربی بالرمزية الغربية فی العصر الحديث وأسبابه

قدأخذت الرمزية الغربية تغزو الأدب العربی فی العصر الحديث ،وذلک لاتصال العرب بالثقافة الغربية وبالعالم الغربی بالوسائل المختلفة.كان حكم الأتراک للبلاد العربية أكبر بلاء ابتليت به ،فوصل الأدب إلی حال من الضعف ،هذا علی حين كانت الأمم الغربية قدسبقت إلی النهضة ،وأفاقت من سبات الجهالة.

عوامل اتصال العرب بالثقافات الأجنبية

١. الاستعمارالفرنسى والإنجليزى،٢. الإرساليات التبشيرية، ٣. الاستشراق، ۴. الهجرة إلى الأمريكيتين، ۵. البعوث العلمية، ۶. الترجمة.هذه هى أهم الأسباب التى اتصلت بها الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية، أما حصر هذه الأسباب كلها فغير ميسور. واتصال العرب بالمدنية الغربية وثقافتها له آثار فى حياة العامة المادية والمعنوية بوجه عام، كما أن له آثار فى الأدب العربى بوجه خاص.خاصة فى تقليدهم لمذاهب الأدب الأوروبى التى منها الرمزية.

الأسباب التى دعت إلى ظهور الرمزية «بالمفهوم الغربى» فى الآداب العربية الحديثة

١. إن من آثار الثقافة الأجنبية فى الأدب العربى تقليد الأوروبيين فى مذاهبهم الأدبية ومنها الرمزية، وكان هذا التقليد عاملا من عوامل تفشى الرمزية فى الأدب العربى الحديث.

٢. الهجرة: لقدهاجر كثير من اللبنانيين إلى أمريكا، بسبب ماعانوا من الفقر والحرمان، هاجروا وأفئدتهم ظمأى إلى الحرية التى فقدوها فى أوطانهم.وكانت حريتهم الأدبية أبرز ألوان الحرية وثاروا على اللغة وأساليبها القديمة.وتكونت من هؤلاء القوم مدرسة رومانتيكية، فقدوجدت الرمزية العربية بدورها الأولى فى الرومانتيكية المهجرية.وزعيم مدرسة المهجر ولاشک جبران خليل جبران، وقدتأثر فى أدبه وفنه التصويرى بـ«بوليم بلاک» الشاعر الرسام الذى كان ينحو فى شعره ورسمه منحى صوفيا رمزيا.يقول الدكتور إسماعيل أدهم: «وفى كتابات جبران ظهرت الرمزية للمرة الأولى فى الأدب العربى الحديث، مختلطة بنزعة رومانتيكية تخييلية.» (أدهم، ١٩۵٢م: ٣٠)

إن الدكتور تقولا قدعرض شيئا من مبادئ الرمزية الغربية بصدد كلامه عن التجديد فى الشعر العربى.على أننا نجد الدعوة إلى الرمزية ومبادئها، أقوى وأشد عند شاعرين الحديث أمثال «بشرفارس» و«سعيد عقل».

الرمزية فی الشعر العربی الحديث

إننا نجد الدعوة إلى الرمزية ومبادئها، أقوى وأشد عند شاعرين من شعراء الأدب العربی الحديث، حاولا أن يقلدا الرمزيين الغربيين فی المبادئ والإنتاج معا، هما «بشرفارس»، زعيم الرمزية فی مصر و«سعيد عقل»، زعيم الأدب الرمزی فی لبنان، وللأول مسرحية نثرية رمزية بعنوان «مفرق الطرق».وأيضا نجد الرمزية الأسلوبية تخطو خطوة أوسع فی شعر مطران الذی كانت نزعته إلى التجديد أقوى من نزعة أنداده ومعاصريه من أمثال شوقی وحافظ.ومما يدلّ على ذلک من شعر مطران قصيدته «المساء» التی قالها وهو عليل بالإسكندرية، يصور خواطره وهو قابع على صخرة إلى البحر. (مطران، لاتا: ۱۴۵و۱۴۶)

النتيجة

اتصل العرب بالثقافات الأجنبية والآداب الغربية بالوسائط التی ذكرناها، واقتبس من ألوان الثقافة الغربية والآداب الأجنبية. وكان من آثار ذلک كلّه أن استعادت الرمزية الأسلوبية العربية نضارتها، بعيدة عن التكلف والصنعة. وأيضا التقت الرمزية العربية الحديثة، برمزية أخرى غريبة، اتخذت شكل مذهب أدبی فی فرنسا فی أواخر القرن التاسع عشر. والرمزية عند الغربيين مذهب، يخالف فی أصوله ومبادئه الرمزية عند العرب: فهو مذهب ينزع إلى الذاتية المطلقة، وينفر من العلم الواقعی المحسوس، وينزوی عن المجتمع، ومن أجل ذلک نزع إلى الإبهام والغموض الشديد. وقد استهدف هذا المذهب غرضين أساسيين: أولهما، تلخيص الشعر من العناصر النثرية، وثانيهما، الاتصال بالعالم المثالی عن طريق الفن. والأدب العربی لم يكن بمعزل عن المجتمع وما يدور فيه من أحداث سياسية واجتماعية.ولايعيش الرمزيون العرب فی الأبراج العاجية كما يعيش فيها الرمزيون الغربيون. فقد شاع فی بعض الأدب العربی الحديث كثير من مظاهر الرمزية الأوروبية فی مصر بوجه خاص، وفی لبنان بوجه أخص.وحاول بعض الأدباء أن يتجه اتجاها رمزيا غربيا فی القصة، والمسرحية، ونزع إلى الذاتية، وعلى أية حال

فقد لقی الأدب الرمزی الذی ينحو منحی الرمزية الغربية، معارضة شديدة حتی فی لبنان نفسها واستهوی فيها الأدب الرمزی فريقا كبيرا من أدبائها، وأمافی مصر فقدكانت تلک أشد وأعنف.

المصادر والمراجع

ابن منظور. لاتا. *لسان العرب*. لانا.

أدهم، أسماعيل. ١٩٥٢م. *توفيق الحكيم*. مصر: طبع دار سعد.

الثعالبی. ١٩٢٧م. *فقه اللغة*. لبنان: نشر المكتبة التجارية.

سلامة، إبراهيم. لاتا. *تيارات أدبية بين الشرق والغرب*. الطبة الأولی. لبنان: مكتبة ناشرون.

الشايب، حمد. لاتا. *تاريخ الشعر السياسی*. مصر: نشر مكتبة النهضة.

ضيف، شوقی. ١٩٥٢م. *التطور والتجديد فی الشعر الأموی*. الطبعة الأولی. لبنان: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

طبانة، بدوی. لاتا. *قدامة بن جعفر والنقد الأدبی*. مصر: نشرمكتبة الأنجلو.

عبدالرزاق، علی. لاتا. *أمالی علی عبدالرزاق فی علم البيان وتاريخه*. لانا.

العقاد، مقال بمجلة الكتاب يناير سنة١٩٤٧م.

قدامة بن جعفر. ١٩٣٩م. *نقد النثر*. تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادی. القاهرة: مطبعة مصر.

القيروانی، ابن الرشيق. ١٩٢٥م. *العمدة*. الطبعة الأولی. مكتبة أمين هندية.

مطران، خليل. لاتا. *ديوان خليل*. القاهرة: دار المعارف.

مندور، محمد. ١٩٤٩م. *فی الأدب والنقد*. لبنان: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

نوفل، سيد. ١٩٤٥م. *شعر الطبيعة فی الأدب العربی*. مصر: مكتبة الخانجی.